الفصل السادس

الأميـر عبـد القـادر الجزائـري، رمـز المقاومـة الجزائريـة

سامية بو عمران(*)

بعد احتلال الجزائر في تموز/ يوليو ١٨٣٠ استسلم الداي حسين للفرنسيين ولجأ إلى المشرق. فعمت الفوضى في البلاد وكثر الشقاق وأدى ذلك إلى اقتصار كُلّ زعيم بناحيته(١)، فساء الوضع في البلاد إلى درجة أنّه اجتمع الأشراف والعلماء والأعيان بغرب الجزائر واختاروا عبد القادر(٢) بن محي الدين أميراً لمقاومة الاحتلال(٣)، وتم ذلك في ٢٧ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٣٧ على أساس أن يقود الأمير المقاومة الشعبية ضدّ العدو، فصرح: «قبلت بيعتهم وطاعتهم كما أني قبلت هذا المنصب مع عدم ميلي إليه مؤملاً أن يكون واسطة لجمع كلمة المسلمين ورفع النزاع والخصام من بينهم ومنع الأعمال المنافية للشريعة وحماية البلاد من العدو»(٤)، فلم يرض بتسميته سلطاناً واكتفى باسم الأمير.

ونتساءل عما كانت خبرة الأمير في الحرب وهو ابن طريقة صوفية لم تؤهله

(*) أستاذة محاضرة في قسم التاريخ، جامعة الجزائر.

(١) انظر: يحيى بوعزيز، **الأمير عبد القادر، رائد الكفاح الجزائري** (تلمسان: دار ابن خلدون، ٢٠٠٢)، ص ٤٤.

(٢) ولد عبد القادر سنة ١٨٠٨ في ضواحي معسكر بالغرب الجزائري وتوفي في دمشق عام ١٨٨٣.

(٣) محمد بن عبد القادر الجزائري، **تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر**، ٢ ج في ١ (الإسكندرية: المطبعة التجارية، ١٩٠٣)، ص ١٠١.

(٤) المصدر نفسه، ص ٦٩ ـ ١٠٦.

مبدئياً للقيادة الحربية؟ قد أشار هو بالذات إلى ذلك حين بويع أميراً، وشرح أنّه تكوّن في أسرة مسلمة على أساس أن يقوم بالتدريس والأعمال الصالحة ومساعدة الفقراء والمساكين، ولم يفكر أنّه سيكون في يوم من الأيام قائد ثورة مسلحة، إلا أن ظروف البلاد فرضت عليه هذه المهمة الصعبة فتقبلها وقام بواجب الوطن والدين[٥]. فصار الأمير فعلاً رائد الجهاد، وقد ساعدته على أداء مهمته شخصيته البارزة النادرة وذلك في تحمل المخاطرة في ميدان الحرب وأعباء المشاق بنفسه في ميدان القتال، إلى درجة أنّه نال إعجاب مواطنيه، واعترفت أبرز الشخصيات الأجنبية[٦] بمناقبيته العسكرية والسياسية بمن فيهم خصومه حيثُ قال المارشال سولت: «هو أعظم شخصية في زمانه مع نابليون».

أما بيجو فاعترف بعد محاربته مدة ست سنوات (١٨٤١ ـ ١٨٤٧) أنّه «رجل عبقري»[٧]، فكان قادراً على قيادة الشعب، وقام على جمعه تحت لوائه، وتوصل إلى توحيد صفوف القبائل، فوضع أسس الوحدة التي تتجاوز النظام القبلي والعصبية الضيقة[٨]. وكان عليه أن يقاوم على جبهتين، من ناحية لتوعية شيوخ القبائل والقضاء على بعض الخصوم الذين تحالفوا مع العدو، ولهذا الغرض تنقل بنفسه لإقناع المترددين وحرّضهم ليشاركوا في الجهاد. إنّه «خاض غمار القتال ضد العدو من جهة، وبعث الحماس والثقة في القبائل لنشر روح المقاومة في جميع أنحاء البلاد من جهة أخرى»[٩].

وسنقسم هذه المقاومة إلى ثلاثة أصناف.

أولاً: المقاومة السياسية

شرع الأمير بعد مبايعته، في تنظيم الدولة وتطبيق نظام مدني أقرب إلى نظام الدولة الحديثة في القرن التاسع عشر، مع أن الجزائر كانت تعيش في نظام قبلي، فاتخذ مدينة «معسكر» عاصمة له وأسس حكومة مركزية وشكل مجلس الشورى

---

(٥) مصطفى بن التهامي، **سيرة الأمير عبد القادر وجهاده**، تحقيق وتقديم وتعليق يحيى بوعزيز (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٥)، ص ١٣٠.

(٦) أ. ف. دينيزن، **الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية العربية في الجزائر**، ترجمة وتقديم أبو العيد دودو (الجزائر: دار هومة، ١٩٩٩)، ص ٢٧.

(٧) Charles-Henry Churchill, *La Vie d'Abdel Kader*, introduction, traduction et notes de Michel Habart (Alger: S.N.E.D., 1971), p. 352.

(٨) دينيزن، المصدر نفسه، ص ٢٠.

(٩) Churchill, Ibid., p. 167.

الأميري المكون من ١١ عضواً من العلماء الأجلاء والأعيان[١٠]. وكان يستشير بطريقة منتظمة هذا المجلس ويتداول معه المسائل الكبرى التي يرى من واجبه أن يأخذ برأيهم فيها، ثُمّ قسم البلاد إلى ثماني مقاطعات ووضع على رأس كُلّ واحدة منها خليفة وتحت أمره دوائر يقود كُلّ دائرة منها «آغا». وأشهر خلفائه بوحميدي في غرب البلاد، ومصطفى بن تهامي في وسطها، وابن علال في مليانة، والبركاني في المدية، وبن سالم في منطقة الجرجرة، وبن عزوز في منطقة بسكرة. وقام هؤلاء الخلفاء بالإدارة والعمليات الحربية في الوقت نفسه. وأبعد الأمير الذين شاركوا في النظام السابق (العهد العثماني) واختار القادة على أساس الخبرة والكفاءة[١١]. وزّود كُلّ خليفة من خلفائه بعدد من الجنود النظاميين ليتمكنوا من فرض سلطة الدولة في مختلف مقاطعاتهم ومحاربة العدو فيها.

واشتهر هؤلاء القادة بالبسالة والخطة المحكمة والأخلاق الحميدة، ونالوا تأييد الشعب تأييداً كاملاً، ما عدا بعض الخصوم وعددهم قليل الذين التحقوا بالعدو فحاربهم بصرامة وتم القضاء عليهم في أكثر من مناسبة.

وإلى جانب الخلفاء، أولى القضاة مسؤولية توفير العدل للأشخاص، ودفع لهم رواتب من الخزينة التي كانت تموّل أساساً من الضريبة المحلية بحسب ما تأمر به الشريعة[١٢].

أما الحكومة، فتكوّنت من الوزارات الأساسية منها الداخلية والخارجية والعدل، واتصفت بتطبيق المبادئ الإسلامية من المساواة والعدل، إلى أن ساد الأمن في البلاد، وساد الشعور بالمصلحة الوطنية بدلاً من الشعور بمصلحة القبيلة[١٣]، فحرص الأمير شخصياً على أن يحكم المسؤولون بالحق، وأن يعملوا بإخلاص وطلب من عامة الناس أنّه إذا: «كان لأحد قضية فليرفعها إلى الديوان الأميري من دون وساطة وإن ظلم أحد ولم يتقدم بشكواه فلا يلومن إلا نفسه»[١٤]. وبفضل المراقبة الشخصيّة التي لا تمهل، استطاع الأمير أن يواصل مهمته ويحقق مخططاته الطموحة في مجال الإصلاح والتقدم. واستطاع تجسيد مبدأ التقدم والإصلاح باقتدار

---

(١٠) بوعزيز، **الأمير عبد القادر، رائد الكفاح الجزائري**، ص ٧٦.

(١١) المصدر نفسه، ص ٧٩.

(١٢) Churchill, Ibid., p.159.

(١٣) دينيزن، **الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية العربية في الجزائر**، ص ٨٢.

(١٤) بديعة الحسني الجزائري، **الأمير عبد القادر الجزائري** (دمشق: [د. ن.]، ١٩٩٢)، ص ٤٠.

ومهارة عبر جميع أرجاء البلاد ونشر التعليم والتكوين والأمن والاستقرار[١٥].

اتخذ الأمير عاصمته في أول الأمر في مدينة «معسكر» ثُمّ نقلها إلى مدينة «تاقدمت» بعدما قام العدو بتدمير المدن الشمالية، ثُمّ كوّن مدينة «متنقلة» هي «الزمالة»[١٦].

ثانياً: المقاومة المسلحة

أعدّ الأمير جيشاً نظامياً سمّاه «الجيش المحمدي»، وهو جيش حديث رتّب الصفوف فيه[١٧]، واختار رؤساء الجند من ذوي الشجاعة والإيمان وهم من زعماء القبائل، ووضع له قوانين في كتاب **وشاح الكتائب**[١٨]. وصنف الدرجات بين ضباط صغار وضباط كبار، وحدّد لكُلّ درجة الراتب الذي يناسبها، كما نفخ في الجيش روح القتال والنصر والشهادة. وأضاف إلى الجنود النظاميين متطوعين من مختلف السكان استعان بهم في وقت القتال وأطلق سراحهم في وقت الهدنة ليقوموا بنشاطهم الزراعي الذي هو مصدر عيشهم، وما ساعده على ذلك قبل كُلّ شيء القدوة الحسنة التي كان يمثلها حيثُ اختلط بالجنود وشجعهم لرفع معنوياتهم وقال في إحدى قصائده:

«يا ربّ البرايا زدهم صبراً ونصراً دائماً يتكمل».

وأبدى مهارته في الفروسية والقتال كما وصفه معاصروه: «لم يكن عبد القادر فارساً مهيباً فحسب، بل إن تفوقه المدهش في كُلّ متطلبات الفروسية يدفع الفرس إلى أكبر سرعة ممكنة ويطلق النار على هدفه بدقة عجيبة»[١٩].

كان عدد الجنود يتراوح بين ٨٠٠٠ و١٥٠٠٠ مقاتل[٢٠]، وذلك في مقابل

---

(١٥) Churchill, *La Vie d'Abdel Kader*, pp. 97-98.

(١٦) هي عبارة عن مدينة من الخيام، تأسست في عام ١٨٤٢، وبلغ عدد سكانها حوالى ٢٠ ألف نسمة، فيها قسم لعائلة الأمير وذويه، وقسم لأركان الحرب وعائلتهم، وقسم للجند وعائلتهم، وأماكن خاصة لمعامل السلاح، وأماكن لمجالس الشورى والقضاء.

(١٧) بن التهامي، **سيرة الأمير عبد القادر وجهاده**، ص ١٣٥ ـ ١٣٦.

(١٨) قدور بن رويلة، **وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب: ويليه ديوان العسكر المحمدي المليانى**، تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر، ١٩٦٨).

(١٩) Churchill, *La Vie d'Abdel Kader*, p. 82.

(٢٠) انظر: Marcel Emerit, *L'Algérie à l'époque d'Abd-el-Kader*, gouvernement général de l'Algérie. Collection de documents inédits sur l'histoire de l'Algérie; 2. Sér. documents divers; t. 4 (Paris: Editions Larose, 1951), pp. 277-280.

الجيش الفرنسي الذي كان عدده يتراوح ما بين ٦٠ ألف و١٠٠ ألف جندي، فكيف استطاع الأمير أن يحقق انتصارات متتالية على الفرنسيين بالرغم من تفوقهم في العدد والعتاد؟ إنَّه لم يستطع مجابهة العدو نظراً إلى تفوقه، فاستعمل حرب العصابات والمناوشات ووضع الكمائن والهجوم السريع والمفاجئ والتنقل الدائم، لتضليل العدو والتحايل عليه واستنزافه، ولا ننسى كذلك مزايا الجغرافيا الطبيعية التي تتميز بها البلاد زيادة على قدرة الأمير على الإبداع كُلَّما تتغير استراتيجية العدو(٢١). وأما السلاح فاشتراه الأمير من الدول المجاورة، ثُمّ قام بصنعه في مدن محصنة مثل «المدية» و«مليانة» و«معسكر». وكان غرضه من تحصين المدن وبناء القلع، الدفاع عن حياة المدنيين، وعاش الضباط مع جنودهم فيها وتنقل الأمير بينها بسرعة عجيبة(٢٢)، فارتبكت خطة العدو الذي لم يتمكن من اعتقاله طيلة سبعة عشر عاماً، رغم ما بذله من مجهود في هذا الغرض.

كتب القائد العسكري بيجو: «ينبغي للمرء أن يكون ساحراً لكي يتنبأ بحركاته، وأن تكون لجنودنا أجنحة للّحاق به، فهو يتنقل إلى حيثُ لا نكون موجودين، أو إلى حيثُ لم نعد فيه موجودين، هل تعرفون أين تكمن قوته؟ إنها في عدم إمكان العثور عليه، إنها في مسخة الأرض، في حرارة شمس أفريقيا، في انعدام الماء، في حياة الترحال بين العرب، هنا تكمن قوته ولا بُدَّ لنا من إخضاعه، ويجب القضاء عليه»(٢٣). وبفضل خطة الأمير هذه وبسالة جنوده انتصر الأمير في أكثر من معركة، نشير هنا فقط إلى معركتين شهيرتين، **المعركة الأولى**، هي «المقطع» الواقعة بين مدينة «أرزيو» ومدينة مستغانم في ٢٨ حزيران/ يونيو ١٨٣٥، حيثُ انهزم الجيش الفرنسي وخسر فيها مئات القتلى، واهتز الرأي العام الفرنسي بعد هذه الهزيمة وعزل القائد تريزل (Trezel)الذي كان قد أساء التصرف، وإثر ذلك قال رئيس الحكومة الفرنسية: «إن غزونا للجزائر عملية خاسرة إلى الآن لم تنجح»(٢٤). وانتقاماً لهذه الهزيمة قرر القائد العام الفرنسي القيام بحملة على عاصمة الأمير «معسكر»(٢٥).

أما **المعركة الثانية**، فهي معركة سيدي براهيم في أيلول/ سبتمبر ١٨٤٥ والتي

---

(٢١) دينيزن، **الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية العربية في الجزائر**، ص ٢٧.

(٢٢) Paul Azan, *Bugeaud et L'Algérie*, livres d'occasion (Paris: [s. n.], 1930), p. 68.

(٢٣) Churchill, *La Vie d'Abdel Kader*, pp. 353-352.

(٢٤) المصدر نفسه، ص ١١٠.

(٢٥) الجزائري، **تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر**، ص ١٦٧.

كان موقعها قريباً من مدينة «الغزوات»، انتصر فيها الأمير على العدو انتصاراً كليّاً، فكبد القائد مونتانياك (Montagnac) خسائر كبيرة وقتل في المعركة، واعتقل الأمير العديد من الأسرى. وكان لهذا الانتصار العظيم صدى كبيراً داخل القطر وخارجه[٢٦]، فقويت معنويات الجيش المحمدي وواصل الأمير القتال ضدّ العدو رغم الفارق الكبير بين الجيشين في العدد والعتاد.

وإضافة إلى هذه المعارك، لم يهمل الأمير الجانب الدبلوماسي، بل حصل بعد مفاوضات كبيرة على معاهدتين بارزتين، **الأولى**، هي معاهدة دي ميشال (Des Michels) التي أبرمت في ٢٦ شباط/فبراير ١٨٣٤، وكان القائد الفرنسي هو الذي طلبها لأسباب نذكر أهمها: كان القائد يعاني من صعوبة تموين جيشه، إذ حاصره الأمير ومنع على مواطنيه التعامل التجاري مع العدو، فاعتقد القائد الفرنسي أن الصلح مع زعيم يتمتع بنفوذ سياسي كبير يمكن أن يتفق معه وإن كان ذلك موقتاً.

أما الأمير فكان في حاجة إلى هدنة ليواصل بناء دولته وتنظيم جيشه، فطوع بعض المعارضين الذين تمردوا على سلطته (مصطفى بن إسماعيل في تلمسان، الغمري)[٢٧] وإدارته، وكان الأمير يعلم علم اليقين أن هذه الهدنة لن تعّمر طويلاً ولكنه استفاد منها حيثُ اعترفت به الحكومة الفرنسية في مقابل سيادتها على بعض المدن مثل: الجزائر، وهران، مستغانم، أرزيو[٢٨]، فتعيّن ممثل للإدارة الفرنسية في عاصمة الأمير وممثل للأمير لدى الحاكم الفرنسي بمدينة الجزائر. وكان الأمير على يقين أن هذا الصلح مع العدو ما هو إلا مجرد هدنة، إذ كانت للعدو خطة بعيدة المدى في احتلال القطر كُلّه والسيطرة عليه وشرعت الإدارة الفرنسية في تأويل[٢٩] المعاهدة لفائدتها، فاستعملت المراوغات في تنفيذها وحاولت التقليص من تطبيقها[٣٠]. وزعمت مثلاً أن المعاهدة فيها جانب سري لم تطلع عليه وشككت في صلاحية الهدنة[٣١].

أما المعاهدة **الثانية**، فتمّت في ٣٠ أيار/مايو ١٨٣٧ على ضفاف نهر «التافنة»

---

(٢٦) Paul Azan, *L'Emir Abd el Kader, 1808-1883, du fanatisme musulman au patroitisme français*, his Récits d'Afrique ([Paris]: Hachette, [1925]), p. 53.

(٢٧) Churchill, *La Vie d'Abdel Kader*, p. 96.

(٢٨) المصدر نفسه، ص ١٧٥ ـ ١٧٩.

(٢٩) الجزائري، **تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر**، ص ١١٣ ـ ١١٦.

(٣٠) بن التهامي، **سيرة الأمير عبد القادر وجهاده**، ص ١١٠.

(٣١) Churchill, *La Vie d'Abdel Kader*, p.101.

القريب من مدينة تلمسان، وقد وافقت عليها الحكومة الفرنسية (الملك لويس فيليب)، ما عزز من جديد دولة الأمير. ولكن الإدارة خالفت بنداً واحداً من بنودها واقتحمت منطقة في شرق البلاد كانت تابعة للأمير[٣٢]، وفي هذه الفترة استفاد الأمير من الهدنة حيثُ انتقل إلى عين ماضي قريباً من مدينة الأغواط مقر زاوية الطريقة التجانية في ١٨ حزيران/ يونيو ١٨٣٨، وقضى على تمرد رئيسها بعدما حاصره في قلعته ثُمّ نفاه إلى المغرب[٣٣].

الجدير بالذكر أن الأمير كان وفياً لتطبيق المعاهدتين، في حين أن الدولة الفرنسية لجأت إلى المراوغات قصد السيطرة على بعض المدن والمقاطعات. واستمرت في مناوراتها إلى أن اندلعت الحرب من جديد سنة ١٨٣٩، بسبب اقتحامها لمنطقة كانت تابعة للأمير. أخذت المعارك تشتد وتكبد المحتلون خسائر في الأرواح والعتاد، فزودتهم فرنسا بالسلاح والرجال بقيادة الماريشال بيجو (Bugeaud) الذي انتهج سياسة «الأرض المحروقة»، فقضى على الأخضر واليابس ودمر المدن وأباد السكان. وقام بجريمة اختناق عدد من السكان الأبرياء في مغارة[٣٤]، وأحدثت هذه الجريمة ضجة كبيرة في الرأي العام الفرنسي.

وظلّ الأمير يجاهد ويقاوم في كُلّ الجهات وبخاصة في عمق البلاد، ولكن العدو ضاعف من قواته واستولى على «الزمالة» سنة ١٨٤٣ بما فيها من نساء وأطفال[٣٥]، فراسل الأمير سلطان المغرب للاستعانة به، إلا أن هذا الأخير تعرض إلى ضغوط كبيرة دبلوماسياً وعسكرياً فتخلى عن الأمير[٣٦]، فضعف الجيش المحمدي ولم يستطع الأمير أن يواصل الحرب التي خاضها طيلة ١٧ سنة، فاضطر إلى وقف القتال، كما سنرى ذلك في ما بعد.

ثالثاً: المقاومة الثقافية

لم يكن الأمير قائداً عسكرياً أو مؤسساً للدولة الجزائرية الحديثة فحسب، بل كان شاعراً كبيراً ومفكراً بارعاً ومتصوفاً، فشهد معاصروه بأنّه كان واحداً من الرجال الأكثر ثقافة في زمانه. وذلك أنّه تلقى تربيته الأولى في الزاوية العائلية حيثُ كان

---

(٣٢) المصدر نفسه، ص ١٧٥ ـ ١٨٥.

(٣٣) الجزائري، **تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر**، ص ١٩٦ ـ ١٩٩.

(٣٤) Azan, *Bugeaud et L'Algérie*, pp. 117-118.

(٣٥) Churchill, *La Vie d'Abdel Kader*, p. 240.

(٣٦) Azan, *L'Emir Abd el Kader, 1808-1883, du fanatisme musulman au patroitisme français*, p. 98.

والده مقدم الطريقة القادرية[٣٧]، فاهتم بإعطائه تربية شاملة زيادة على سعة مطالعته في الفلسفة والمنطق والتاريخ والجغرافيا واللغة وغيرها، فكان الأمير يدعو إلى العلم مثلما كان يحرض على الإيمان منبهاً رجاله: «احذروا أن تكونوا أحد النوعين من الرجال، العالِم أو المؤمن بل كونوا الاثنين معاً»[٣٨]. نظم الأمير التعليم في مختلف أنحاء القطر[٣٩]، حيثُ رتب المدرسين من ميزانية الدولة. وذكر في إحدى المناسبات أنّه كان يشفق على المثقفين والمدرسين وبخاصة عندما يرتكبون أخطاء، فيتسامح معهم لأنه كان من الصعب في رأيه تعويضهم إن قضي عليهم[٤٠]، الأمر الذي يدلّ على إنسانية الأمير وكرم أخلاقه.

وبالرغم من وجوده في ساحة المعارك، غير أنّه لم يترك القلم ولا المطالعة، فكان دائماً يعبر عن شعوره بقصائد لا تخلو من الرقة والجمال[٤١]. وألف عدة كتب ورسائل نذكر منها **ذكرى العاقل وتنبيه الغافل**[٤٢] وهو كتاب طلبته منه «الجمعية الآسيوية» في باريس[٤٣]، أكد الأمير فيه أن الإيمان يتكامل مع العقل، والعلوم ليست منافية للدين. وعلى الإنسان أن يتكيف مع عصره دون أن يفقد روحه: «إذا استطاع الإنسان أن يجد طريقة إلى روحه، فإن سعادته ستكون بقدر علمه، وفي حالة العكس فإن شقاه سيكون بقدر جهله»[٤٤]. وكان الأمير يرفض الجبر وقال إن الله أراد أن يكون الإنسان حراً في تصرفه[٤٥]. ورأى أن الحوار ممكن بين الديانات وبخاصة بين الإسلام والمسيحية فقال: «لو أصغى إلي المسلمون والنصارى لرفعت الخلاف بينهم وصاروا إخواناً»[٤٦].

وألف في التصرف **كتاب المواقف** متأثراً بالشيخ الأكبر محي الدين بن عربي

---

(٣٧) مؤسسها عبد القدر الجيلاني وضريحه مشهور في مدينة بغداد.

(٣٨) عبد القادر الجزائري، **ذكرى العاقل وتنبيه الغافل**، تحقيق وتقديم ممدوح حقي (بيروت: دار اليقظة العربية، ١٩٦٦)، ص ٤٠ ـ ٤١.

(٣٩) Churchill, *La Vie d'Abdel Kader*, p. 167.

(٤٠) المصدر نفسه، ص ١٦٧.

(٤١) ألف ديوان شعر عالج فيه مواضيع مختلفة من فخر ومدح، فهو أحسن تعبير في حماسه وانصرافه الكلي للجهاد والمقاومة. انظر: **ديوان الأمير عبد القادر الجزائري**، تحقيق محمد الأخضر عبد القادر السائحي ومحمد صالح رمضان (الجزائر: دار الأمة، ٢٠٠١).

(٤٢) ألفه الأمير في بروسة سنة ١٨٥٥ بطلب من الجمعية الآسيوية في باريس. يبدو أنه أطلع على كتب ابن رشد والغزالي وابن خلدون.

(٤٣) ترجم إلى الفرنسية مرّتين في عامي ١٨٥٨ و١٨٦٧.

(٤٤) الجزائري، **تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر**، ص ٦٣.

(٤٥) الجزائري، **ذكرى العاقل وتنبيه الغافل**، ص ١٦٧.

(٤٦) المصدر نفسه، ص ١٦٧.

الأندلسي، فهو ثمرة الدروس التي ألقاها في دمشق في شرح آيات قرآنية وأحاديث نبوية مخصصاً لكُلّ موضوع «موقفاً». وله أيضاً **المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد** الذي ردّ فيه على الذين هاجموا دين الإسلام(٤٧).

إن هذه النظرة السريعة على المقاومة في مراحلها الثلاث سمحت لنا بتقديم صورة صحيحة عن حياة الأمير وأعماله. ويجدر بنا في نهاية المطاف أن نتوقف قليلاً عند أسئلة طرحها أكثر من باحث.

ـ لماذا قرر الأمير نهاية القتال بعد سبعة عشر سنة من الجهاد المرير؟

ـ لماذا اعتقلته فرنسا رغم الاتفاق الذي تعاهدت به؟

ـ لماذا اختار الأمير دمشق إقامة له بعد إطلاق سراحه؟

ـ هل انخرط فعلاً الأمير في الماسونية؟

في ما يتعلق بوقف القتال، فقد قرره بإرادته في ٢٣ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٤٧. وضح الأمير لمجلسه الشوري أن العدو قد تفوق على جيشه بالعدة والعدد، فدمر البلاد وأباد الكثير من المدنيين العزل، فبعد استشارة الأعيان والقادة قدم لهم خيارات ثلاثة: إما اللجوء إلى الصحراء؛ وإما إلى المغرب الأقصى؛ وإما التفاوض مع العدو، وأبعد الخيار **الأول** لأن الصحراء ليست لها موارد كافية ولا قوة تساعده؛ وأبعد الخيار **الثاني** لأن المغرب أيده في البداية تأييداً كليا، إلا أن العدو حاربه فأضطر إلى معارضة الأمير بعد مناصرته(٤٨). سدت كُلّ الطرق في وجه الأمير وحاصره الجنود المغاربة في الحدود، ولم يبق إلا الخيار الثالث حيثُ قال: «لا أرى إلا التسليم بقضاء الله، ولقد أجهدت نفسي في الذب عن الدين والبلاد، وأقمت على ذلك ما ينوف من ١٧ سنة، أقتحم المهالك وأملأ بالجيوش الجرّارة الفجاج والمسالك، استحقر العدو على كثرته، إلى أن فقدت المعاضد والمساعد، ودبت إليّ من بني ديني الأفاعي، والآن بلغ السيل الزبى وكُلّ شيء بائد»(٤٩).

تفاوض الأمير فعلاً مع الجيش الفرنسي بشروط حددّها، منها: أن يكون حرّاً

---

(٤٧) عبد القادر الجزائري، **المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد**، محررها محمد بن عبد الله الخالدي المغربي (دمشق: [د. ن.، د. ت.]).

(٤٨) كانت فرنسا قد ضايقته بمعاهدة طنجة عام ١٨٤٤ التي كانت ترى أن الأمير خطير وعلى السلطان أن يقضي عليه أو يعتقله ويسلمه إلى السلطات الفرنسية. انظر: Azan, *L'Emir Abd el Kader, 1808-1883, du fanatisme musulman au patroitisme français*, pp. 226-227.

(٤٩) الجزائري، **تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر**، ص ٣٢٣ ـ ٣٢٤.

في الهجرة إلى بلد مسلم يختاره هو ورفاقه، فتعهد له القائد لامورسيير (Lamoricière) بما طلب، وأدى ذلك إلى سخط المجلس الفرنسي، فكتب هذا القائد: «وجهت إلي تهمة الدخول في مفاوضات بدلاً من مواصلة العمل العسكري للإمساك به، هل تعلمون أن كُلّ ما كنت سآخذه لو أني مضيت في مطاردته؟ كنت سأقوم بحملة عسكرية أخرى وكنت استطيع الاستيلاء على خيمة الأمير وعلى حريمه، وربما على أحد خلفائه، أما هو شخصياً بفروسيته المعهودة فإنه كان سيلتحق بالصحراء»(٥٠).

ولكن الحكومة الفرنسية التي وافقت على هذا «التسليم»، سقطت بعد ثورة شعبية ورفضت الحكومة الجديدة احترام العهد، فاعتقلته مدة أربع سنوات في فرنسا، إلى أن قرر الرئيس نابليون بونابارت إطلاق سراحه في تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٥٢(٥١)، فغادر الأمير الأرض الفرنسية وبقي موقتاً في مدينة بروسة بموافقة الدولة العثمانية، ثُمّ وقع زلزال في هذه المدينة، فقرّر الأمير السفر إلى دمشق سنة ١٨٥٥، فقابله أهل الشام باحتفال عظيم لم تشهده هذه المدينة منذُ عهد صلاح الدين الأيوبي(٥٢).

وفي دمشق تفرغ الأمير للدراسة والتدريس والتأليف، واهتمّ بالمهاجرين الجزائريين، إلى أن قامت الأحداث الدموية سنة ١٨٦٠، فأنقذ الأمير بشجاعته المعتادة الآلاف من المسيحيين الذين تعرّضوا إلى مجزرة، ونقلهم إلى داره لحمايتهم(٥٣)، فنال حينئذ إعجاب الدول الغربية ومنح له مختلف رؤسائها الأوسمة اعترافاً بإنسانيته(٥٤). وبعثت له الجمعية الماسونية الفرنسية رسائل عدّة طالبته الانخراط فيها، إلا أنّه لم يوافق على ذلك رغم أنها ادّعت في ما بعد أنّه انخرط فيها، وهذا مجرد افتراء يحلو لبعض الباحثين الفرنسيين الإصرار على إثباته، إذ ردّ الأمير على رسائل الجمعية هذه أو جمعيات أخرى لا يبرر أو يثبت شيئاً من انضمامه لها؛ فالأمير شخصية قوية لا تخضع إلا للمواقف التي تمليها عليه عقيدته وفكره. وفي الواقع أن الماسونية كانت تريد استغلال شهرته في العالم الإسلامي لتنشر أفكارها بواسطته ولكنها لم تنجح، فأعادت هذه الجمعية المحاولة في ما بعد مع رائد النهضة الإسلامية الحديثة جمال الدين الأفغاني وغيره من العلماء.

---

(٥٠) Churchill, *La Vie d'Abdel Kader*, p. 273.

(٥١) الجزائري، المصدر نفسه، ص ٣٧.

(٥٢) انظر: الراوي، «أعيان دمشق،» في: الحسني الجزائري، **الأمير عبد القادر الجزائري**، ص ١٧٦.

(٥٣) جرجي زيدان، **بناة النهضة العربية** (بيروت: دار الكتاب العربي، [د. ت.])، ص ٣١ ـ ٣٢.

(٥٤) إمبراطور فرنسا، ملك بروسيا، قيصر روسيا، ملك إيطاليا، ملك اليونان، ملكة بريطانيا.

والجدير بالذكر أن الأمير حافظ على لقب الإمارة بعد مبايعته من قبل شعبه لقيامه بأمر الجهاد، وهي إمارة الجهاد كما هو معلوم. ولا يمكن أن يتلقب غيره من ورثته بهذه التسمية. ونظراً إلى صفاته الحميدة ومواقفه البطولية، أصبح الأمير رمزاً لجميع الثورات الشعبية التي توالت بعده في بلاده، بما فيها حرب التحرير التي حققت استقلال الجزائر، فهو رمز مجدنا ونحن نحتفل به ونواصل إحياء ذكراه في جميع المناسبات. وقد اعتنى به باحثون جزائريون وأجانب، وأنصفوه واعتبروه من أكبر الشخصيات العالمية التي برزت في القرن التاسع عشر مع المجاهد القوقازي شميل ومحمّد علي باشا.

ونذكر في النهاية مجموعة من المصادر والدراسات التي يمكن للباحثين الرجوع إليها.

المراجـع

درويش، أحمد. **في صحبة الأميرين أبي فراس الحمداني وعبد القادر الجزائري.** الكويت: مؤسسة البابطين، ٢٠٠٠.

Azan, Paul. *Sidi-Brahim*. Paris: Horizons de France [1945].

Cheikh, Bouamrane. *L'Emir Abd-el-Kader, résistant et humaniste: (Etudes avec choix de textes)*. Alger: Editions Hammouda, [2001].

Gabriel, Esquer. *Correspondance (1833-1834)*. Paris: Champion, 1926.

Sahli, Mohamed-Chérif, *Abdelkader: Le Chevalier de la foi*. Alger: [s. n.], 1953.

Temimi, Abdeljelil. «Lettres inédites de l'Emir Abd El Kader.» *Revue d'histoire maghrébine* (Tunis): tome 18, 1978.

Vignon, Louis. *La France en Algérie*. Avec six cartes en noir dans le texte. Paris: Hachette, 1893.